God in Contemporary Thought: The Question of Origin - A Cosmological Approach

Rami Samir Abu Nafaa[(1)*]

(1) Full-time lecturer, University of Jordan, Amman- Jordan.

Received: 26/3/2026
Accepted: 23/4/2026
Published: 30/6/2026

* ***Corresponding Author:***
raminaffaa.rn@gmail.com

DOI:https://doi.org/10.59759/art.v5i2.2047

Abstract

The findings of contemporary science, particularly in the field of cosmology, represent a new frontier for investigating the existence of a Creator. Consequently, this study draws upon scientific theories and positions across multiple disciplines — notably physics and optics—specifically within the context of cosmic chronology and cosmogony. It examines the implications of these findings as they pertain to the postulation of a First Cause or Creator.

Historically, the discourse regarding the proof of God's existence has occupied a central position in human thought and philosophical inquiry. Traditionally, such arguments were derived from the empirical data and scientific paradigms of their respective eras. This suggests that the 'Five Classical Proofs,' when viewed through the lens of contemporary science, may no longer possess their original persuasive force; indeed, they may appear insufficient in the face of significant scientific advancement.

Accordingly, this research aims to present a contemporary proof for the existence of God grounded in modern cosmological data regarding the universe's origins. This data studies the universe and its emergence by synthesizing the empirical observations of scientists with contemporary philosophical discourse, as the philosophical reason discusses philosophical questions from a perspective immanent to current reality. Thus, the 'Question of Origin'—among the most pivotal inquiries in the history of human thought—remains a subject of ongoing investigation. This study seeks to offer a modern approach to addressing this fundamental question.

Keywords: God, Cosmology, Proofs, Reason.

الله في العقل المعاصر
سؤال المصدر مقاربة كوسمولوجية

رامي سمير أبو نفاع[1]

(1) جامعة آل البيت، المفرق – الأردن.

ملخص

تمثل نتائج العلم المعاصر وبشكل خاص علم الكونيات (Cosmology) بابا جديدا للبحث في إثبات وجود الله. لذا فإن هذه الدراسة تعتمد على نظريات ومواقف علمية مرتبطة بعدد من العلوم مثل علم الفيزياء وعلم الضوء خاصة في سياق دراسة عمر الكون ونشوئه، وما يمكن أن تفضي إليه هذه النتائج من القول بوجود خالق (موجد). لقد حظي هذا البحث _ إثبات وجود الله_ بمكانة كبيرة على مر التاريخ الإنساني والفكر الفلسفي، وكانت الأدلة منبثقة من معطيات زمانها وعلوم عصرها الذي ظهرت فيه، الأمر الذي يفضي إلى القول بأن الأدلة المعروفة بالأدلة الخمس (الكلاسيكية)، وفي ضوء العلوم المعاصرة لربما لم يعد لها ذات الأثر، لا بل إنها تبدو ضعيفة أمام هذا التطور العلمي الكبير. وعليه جاء هذا البحث يروم تقديم إثبات لوجود الله في ضوء معطيات العلم المعاصر، وبشكل خاص العلوم الكوسمولوجية، التي تدرس الكون وبدء نشوئه. موظفين ما ذهب إليه العلماء أنفسهم، وعبروا عنه في دراساتهم، في سياق فلسفي معاصر. فالعقل الفلسفي يناقش الأسئلة الفلسفية بمنظور محايث للواقع الحاضر. وبهذا فإن سؤال المصدر الذي يعد من الأسئلة الأكثر أهمية في تاريخ الفكر الإنساني، بقي سؤالا مفتوحا امام البحث الدائم، والغاية هنا محاولة تقديم مقاربة معاصرة للإجابة عن هذا السؤال.

الكلمات المفتاحية: الله، كوسمولوجيا، أدلة، عقل.

د

أهمية الدراسة.

فرض العلم حضوره في المجتمع الإنساني باعتباره المرجع الأكثر أهمية والأقدر على إقامة البرهان والإثبات على ما هو صادق ومقبول عقليًا، باعتبار أن الدليل العلمي هو معيار الصدق لما هو صائب. ونظرًا للتطور الكبير والتقدم اللذان لا يخفيان على كل ذي عقل، باتت المعارف كلها تحتكم لمعيار العلم في قبولها أو رفضها، الأمر الذي يمكن التعبير عنه بأن العلم أصبح وجهة يستكين إليها كل من يبحث عن لحقيقة. انعكس هذا بشكل واضح على الدين والمفاهيم الإيمانية المرتبطة به، وعلى رأس هذه المفاهيم وأكثرها أهمية "وجود الله"، إذ أن العلم بات يقدم

براهينه التي تفضي إلى القول بعدم الحاجة لافتراض وجود الله لتفسير هذا الوجود، سواء الوجود المادي أو الموجود العاقل (الإنسان). الأمر الذي ألقى بضلاله على العقل المؤمن والملحد والتشكك. وهنا تبرز أهمية هذه الدراسة التي تسعى لتقديم مواقف علمية معاصرة خاصة بعلم الكونيات (الكوسمولوجيا) إذ يذهب أصحابها إلى القول ليس فقط بوجود خالق (موجد) للكون لا بل بضرورة وجوده، الأمر الذي يبدو مخالفًا لوجهة النظر السابقة التي كانت تذهب للقول بأن العلم قادر ويقدم تفسيرات تجريبية لا نحتاج معها إلى القول بوجود خالق أو موجد للكون. مع التأكيد بأن الدراسة وإن كانت تعتمد على النتائج العلمية في حقول معرفية مختلفة، إلا أن التحليل والتقديم هو بالأساس يقوم على موقف فلسفي، باعتبار أن العقل الفلسفي هو ابن زمانه وعصره، وهو مدعو إلى توظيف ما لديه من معارف جديدة في سياق فلسفي رامي إلى بناء المواقف والآراء الفلسفية المعاصرة. وهذا يوضح التمايز بين العقل الفلسفي التقليدي والعقل الفلسفي المعاصر، خاصة من جانب ارتباطه بالعلم الذي يعد أكثر الحقول المعرفية اتساعًا واطرادًا في التطور والتقدم.

الأهمية النظرية للدراسة:

تزخر المكتبات العربية بعديد من الأبحاث والدراسات التي تدعي أنها تعالج مفهوم الله فلسفيًا، ويرتبط جزءًا كبير منها في إثبات وجود الله ابتداء، الأمر الذي يمكن أن نلاحظه بسهولة إذا ما نظرنا إلى حجم الإنتاج الفلسفي المرتبط في أدلة وجود الله في الفلسفة الإسلامية والمسيحية. وقد اعتمدت هذه الأدلة بشكل خاص على العقل باعتباره العامل المشترك بين الناس على اختلافهم. وقد جاءت الأدلة التقليدية (الكلاسيكية) المعروفة بالأدلة الخمس على وجود الله، منسجمة مع معطيات عصرها، مستفيدة من العقل كأداة أو طريقا يقود لإثبات وجود الله. ويعد توما الأكويني (Thomas Aquinas)، أهم وأشهر من قدم هذه الأدلة الخمس، (أنظر الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، م1، 32)، وقد شكلت مراجعته لهذه الأدلة نقطة ارتكاز كونها استوعبت كل ما قبلها من مواقف وصياغات وأثرت بكل ما أتى بعدها من أدلة باعتبار أن الأكويني قدمها في سياق عقلي إيماني.

ارتبط الإنسان بالسؤال ارتباطًا وثيقًا، فقد طرح الإنسان السؤال ومارس التساؤل منذ لحظة وجوده، ولربما قبل التموضع على مفردات اللغة، أو حتى إيماءات وإشارات للتواصل، إذ نفترض أن الإنسان مارس السؤال بينه وبين ذاته قبل أن ينطلق نحو الآخر في عملية يمكن أن نطلق عليها مع شيء من التحفظ "التفكير". ويذهب كاتب هذه الأسطر إلى الاعتقاد أن السؤال عن "الله" ووجوده مثّل

السؤال الأهم في حياة طيف واسع جدًا من البشر، منذ وجد الإنسان وحتى هذه اللحظة، واللافت للنظر أن هذه الأهمية تَشاركَ فيها من يقبل ومن يرفض وجود الله، ومن يتخذ موقف الشاك، وموقف اللا أدري، أي شمل البحث طيفًا واسعًا من المواقف المختلفة التي تبناها الباحثون. كل منهم بحث في ذات الأمر وإن كانت منطلقاتهم وغاياتهم مختلفة. ومرد هذا الاختلاف والتعدد قاد إلى وجود إجابات متعددة أيضًا، منها الدينية، وأخرى علمية، وثالثة تاريخية، وهكذا مع اختلاف المنطلق والسياق تختلف الإجابة وإن كان بالإمكان الحديث عن تقاطعات في ذات السياق بين الإجابات. ولا أدل على حيوية هذا السؤال وأهميته حتى يومنا هذا من عدد الدراسات الجادة والأبحاث المنشورة ذات الصلة من المؤسسات التعليمية والبحثية حول العالم، ولا يخطر لنا كما ذكرنا انها أبحاث تقتصر على المؤمنين أو المدافعين عن وجود الله، بل تشمل غير المؤمنين أيضًا. فالمؤسسة البحثية تعنى برصد التحولات المعرفية والأمزجة المجتمعية تجاه كافة القضايا، فكيف الحال في قضية محورية كهذه؟ ونشير هنا إلى إحدى هذه الدراسات التي بينت أن نسبة المؤمنين بالله عام 1967 في أمريكا بلغت 98% وفقًا لمؤسسة غالوب الأمريكية، (Saad and Hrynowski, How Many Americans Believe in God, Gallup, June24,2022)، مقارنة مع ما نسبته 81% عام 2022، وفقا لذات المؤسسة. وقد عبر مايكل غرين (Michael Green) عن هذه الحالة بعنونة أحد فصول كتابه "لا تستطيع أن تؤمن بالله في هذه الأيام". (غرين، هل هذا معقول؟، 29).

لفت الأمر أيضا الباحث العربي الذي بات يتساءل بدوره عن هذا الانخفاض في اعداد المؤمنين إذ عبر إدريس في كتابه عن ذلك بالتساؤل: "لماذا تحول كثير من الناس في الغرب هذا التحول العجيب من الاعتراف بربوبية الخالق إلى إنكار وجوده" (إدريس، الفيزياء ووجود الخالق، ص21). ومما يلفت النظر ويستدعي التوقف عنده ليس فقط هذا الانخفاض الكبير في نسبة المؤمنين، بل ما ذهبت إليه الدراسة بعد ذلك من ان 44% ممن لم يؤمنوا بوجود إله باتوا أكثر انفتاحًا لفكرة وجود إله.(Kinnaman, Rising Spiritual Openness in America, Barna Research, January 18, 2023) وهذا يدعوا للتفكير في طبيعة التحولات التي حصلت سواء على الصعيد الاجتماعي أو على الصعيد العلمي أو غيرهما أدت إلى الانخفاض من ما نسبته (98%) عام 1967 إلى (81%) في عام 2022، ثم الوقوف عند طبيعة التحولات التي اسهمت في أن بات (44%) أكثر انفتاحًا على فكرة وجود إله. فالانخفاض المستمر على امتداد السنوات وصل إلى نقطة ما، ثم بات يقابله حالة انفتاح نحو تغير الموقف، الأمر الذي يدعو للتوقف

ومحاولة البحث عن ما يمكن أن يكون له أثر أو إسهام في هذا التحول. هذا الانفتاح الذي ذهب بعض الكُتاب والباحثين إلى اعتباره انعكاسًا لبحث الإنسان عن المعنى، والذي عبر ستروبل عنه بالقول بان الإنسان يبحث عن "هدف للحياة". (ستروبل، هل الله حقيقي؟، ص11).

باعتبار العلم يمثل عاملًا مؤثرًا وموجها للمجتمع الحديث، فإن الباحث يذهب إلى ضرورة التوقف عند التحولات العلمية والمعرفية ذات العلاقة بأصل الكون، إذ أن التطور العلمي لربما ساهم في شيء من هذا التراجع، وما لحق به بعد ذلك من ارتفاع، حيث سعى العلم سواء بقصد أم من دون قصد إلى تفسير كل شيء بطريقة مادية تجريبية، لا تترك معها حاجة لوجود إله، الأمر الذي قاد العديد من البشر إلى هجر الإيمان بوجوده، ثم جاءت ظروف أخرى وبعد عقود من الزمن وضعت الإنسان أمام حالة من الفراغ الروحي الذي لم تسطيع الطروحات العلمية أن تملئه، وكان لانتشار الأوبئة (Grad, 2021) والأمراض أثرًا كبيرًا في التأثير على معتقدات الأفراد وصولًا إلى جائحة كورونا التي كان لها وقعا مباشرة في التأثير على العقل الجمعي الذي وجد نفسه عاجزًا أمام وباء ترك بصمته على العالم كله. وأعاد سؤال الحياة والموت إلى مقدمة تفكيره، خاصة مع زوال وهم السيطرة المطلقة على الكون الذي أسهم التطور التقني والعلمي في تعزيزه لدي الإنسان المعاصر.

مشكلة الدراسة.

كيف يمكن للعقل الفلسفي أن يوظف أو يستفيد من النتاج العلمي المعاصر؟ وبشكل خاص في مقاربة سؤال المصدر، حيث إنها تمثل مدخلًا مهمًا في الفلسفة الدينية المعاصرة. هل يمكن إثبات وجود الله، خارج نطاق الإيمان؟ وكيف يمكن فهم المعارف الجديدة في العلوم التجريبية كالفيزياء وعلم الضوء، وما الاستنتاجات التي تقود إليها؟ وهل يمكن القول مع هذا التقدم العلمي أن إثبات وجود الله لا زال ممكنا؟ أو هل لا زال ممكنا القول بوجود خالق (موجد) لهذا الكون؟ المشكلة هنا تتضمن بحث إمكانية تجاوز العقل الفلسفي التقليدي الذي سعى لإثبات وجود الله من خلال البراهين الكلاسيكية الخمس. إلى تقديم تمثلًا معاصرًا يقرن العقل الفلسفي بالنتاج العلمي، مع لفت النظر أن الأدلة الخمس الكلاسيكية هي الأكثر شهرة لكنها ليست الوحيدة، إذ يوجد تجليات عقلية أخرى قالت بوجود غير مادي كالتي قال بها سبينوزا وهيجل على سبيل المثال.وهما نسقان لا يقاربان في منهجهما منهج الأدلة الكلاسيكية. والحاجة الآن إلى توظيف العقل مرة أخرى

في ضوء معطيات هذا العصر في محاولة لمقاربة سؤال المصدر من جديد. بما يتناسب مع العقل المعاصر وما يتضمنه من نتائج معرفية علمية لم تكن متاحة سابقًا.

أهداف الدراسة.

يُنظر إلى العقل العلمي من خلال طيف واسع من العلماء والمشتغلين في العلم باعتباره السلطة العليا في تفسير الوجود، وتقديم الإجابات على السؤال الإنساني، لا بل إن العقل العلمي يذهب وفقًا لبعض المذاهب إلى اعتبار العلم المصدر الوحيد للمعرفة الموثوقة (Reese, What Scientific Proof Do We Have That There Is A God? 2024)، ويستبعد ليس فقط النتائج التي نصل إليها بغير العلم لا بل يستبعد أي إمكانية للاعتداد بأي معرفة غير علمية. وعليه فإن قضية وجود الله مع ما تحمله من أهمية كُبرى على المستوى الإنساني، وبشكل خاص لدي المؤمنين (الإشارة إلى المؤمنين بالرسالات السماوية الثلاث بشكل خاص) باتت تعد قضية موضع شك، وقد تراجعت إمكانية الدفاع عنها في مرحلة ما بسبب ما يقدمه العلم من تفسيرات تقدم إجابات على أسئلة الوجود الكبرى، إجابات تستثنى الحاجة إلى وجود خالق. وهنا لا بد من الإشارة مبكرًا إلى أن الأمر ليس مرده التضاد أو الصراع بين العلم والدين، وقد عبر الفيزيائي الأمريكي ستيفن بار (Stephen Barr) عن ذلك بالقول أن المشكلة الأساسية ليست بين العلم والدين، وإنما بين تيار المادية العلمية والدين، لا بل إن الاكتشافات العلمية الحديثة تبدوا أكثر توافقا مع الإيمان. (Barr, Modern Physics and Ancient Faith, Look Introduction) فجاء هدف الدراسة راميًا إلى تسلط الضوء على نتائج الدراسات العلمية المعاصرة، وكيف أنها تشهد ميلا نحو الاعتراف بوجود خالق (مسبب) لهذا الكون.

اسئلة الدراسة.

هل يحتفظ العلم بذات الموقف تجاه مصدر الكون ونشأته؟ ما المقاربة الممكنة فلسفيًا تجاه الإجابة التي يقدمها العلم المعاصر؟ هل الله موجود؟ وإن كان موجودًا هل يمكن إثبات وجوده؟ كيف يمكن لنتائج العلم المعاصر، خاصة في مجال علم الكونيات أن تسهم في إثبات وجود الله؟

تظهر المواقف العلمية المتباينة اختلاف الإجابات تجاه ذات الأسئلة، الأمر الذي قاد إلى وجود نظريات ومواقف متعددة، وبرغم أن لبعضها حضورًا وسطوة تعلو على غيرها لما فيها من ترابط منطقي وتأييد تجريبي، أو لقدرتها على تقديم التفسير الأكثر قبولًا وإقناعًا، إلا أن العلم لا يقف عند

نقطة وصول، ولا يقبل أي إجابة على أنها إجابة قطعية نهائية، فالباب مفتوحًا دائمًا لتجاوز ما لدينا نحو معرفة أكثر دقة. وعليه فإن الدراسة التي بين أيديكم تهدف إلى تسليط الضوء أولًا على مواقف علمية معاصرة، وتقدم موقفًا مغايرًا للتفسير السائد، والاتكاء عليها لبناء موقف فلسفي.

نستحضر هنا الديالكتيك الهيجلي، المتضمن أن الأفكار تولد من اضدادها، فنقول بأن كل إجابة تحمل في طياتها نقيضها، فمع كل إثبات أو تأكيد نستحضر احتمال النفي، وبالمثل مع كل نفي نستحضر احتمال الإثبات. الأمر الذي قد يقود لجعل كل الآراء متساوية لها ذات القدر. وهنا تبرز ضرورة إيجاد مخرجًا من هذا الديالكتيك (الجدل) الهيجيلي. إذ نجد تمثلًا لموقف مشابه إلى حد ما عند ديكارت إذ قارب هذه الجدلية من زاوية أخرى باعتبار الفكرة تستحضر نقيضها بقوله أن المتناهي يستحضر فكرة اللامتناهي. (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 124). لربما إذن لا مناص من هذه الثنائية إلا من خلال إجابة لا تحمل معها نقيضها، أي إجابة لا تتيح الفرصة أو لا تسمح باستحضار نقيضها دون الوقوع في تناقض. الأمر الذي لم يحدث في منهج الإجابات التقليدية المعروفة في الفلسفة، وخاصة الفلسفة الدينية منها، ومن هنا جاء البحث في مفهوم الله في العقل المعاصر، لنرى كيف تعامل العقل في القرن العشرين والواحد العشرين مع هذا السؤال، متمثلين سؤال المصدر كنقطة انطلاق في البحث الذي نأمل أن يتلوه تمثلات أخرى لذات المفهوم في العقل المعاصر.

الدراسات السابقة.

ضمت المكتبة العربية عدد كبير جدا من الكتب والدراسات الباحثة في مفهوم الله، وأفرد عناية خاصة للبحث في إثبات وجود الله والأدلة التي يمكن تقديمها في هذا السياق ذلك. الأمر الذي يشير بشكل واضح إلى مكانة وأهمية هذا الموضوع للعقل العربي بشكل خاص، كون المجتمع العربي يُغلب عليه الطابع الديني ويمثل النص فيه مرجعًا وسلطة لا يمكن غض الطرف عنها، وعليه فإن المؤلفات المتزايدة في هذا الشأن تبحث في أدلة وجود الله والبراهين والإثباتات من جوانب مختلفة، إلا أن الناظر والفاحص لها يستطيع أن يقارب بين معظم ما تتضمنه، إذ لا يخلوا الأمر من بعض التكرار، خاصة وأن تاريخ الفلسفة العربية والغربية قد عُني بهذا الأمر وقدم إجاباته المتنوعة المنطلقة من النص المقدس في بعض الأحيان، أو المنطلقة من مقاربة فلسفية في أحيان أخرى، مثل الدليل الأنطولوجي، وغيره من الأدلة الخمس الكلاسيكية المعروفة بأدلة وجود

الله مع بعض الاختلافات المرتبطة باختلاف التعبير والصياغة المرتبطة بالثقافة. وفي إطار الدراسات السابقة علينا أن نشير أن الدراسات العربية قديمها وحديثها لم يخرج عن المقاربة الكلاسيكية في إثبات وجود الله، وعليه فالدراسات باختلاف تاريخ نشرها الذي يفصل بينها عقود من الزمن ما هي إلا نموذجًا على ثبات كبير في الدراسات العربية تجاه هذه القضية. أما الدراسات الأجنبية، فإنها تقدم طرحا جديدا ومغايرًا للأدلة الكلاسيكية، وعليه فإنها الأكثر قربًا لموضع دراستنا. نورد فيما يلي بعض هذه الدراسات للإشارة للمحتوى التي تتضمنه.

- **سوون (2025) "هل الله موجود؟صيغة رياضية جديدة تشير إلى ان لله حقيقي"**

يمكن القول بأن هذه الدراسة، تعد أقرب الدراسات لموضع بحثنا هذا، كونها تنطلق من أرضية علمية دون الإتكاء على الإيمان المسبق. يقدم سوون في هذه الدراسة طرحًا ثوريًا معاصرًا يؤكد فيه إمكانية إثبات وجود الله باعتباره خالقًا وموجدًا للكون، في ضوء صيغة رياضية توضح أن النظام في هذا الكون وضع بدقة خاصة بحسب تعبيره. إننا نقارب هنا حجة النظام المعروفة في الأدلة الكلاسيكية مع التأكيد على أن الفرق كبير جدًا بين الحديث عن النظام في إطار نظري وإيماني، وبين مفهوم النظام كما أورده سوون عالم الفيزياء الفلكية وهندسة الفضاء باعتباره (حجة الضبط الدقيق) إذ يذهب إلى أن هذا الضبط الشديد جاء بهذا الشكل كي يقود للحياة. الحديث هنا عن تصميم هادف، وكأننا نقرأ مفهوم العلة الغائية في الفلسفة اليونانية، إلا ان الغائية هنا يمكن تقديمها رياضيًا، لا بل إنه يذهب إلى القول بأن هذه المعادلة الرياضية يمكن أن تكون الحلقة المفقودة بين ما يقدمه العلم من أدلة والدين من إيمان.

- **بولوريه، بوناسي (2025) "الله، العلم، الدليل".**

إن المؤلفان في هذا الكتاب وهما يأتيان من ميداني العلم والهندسة يقولان بأن الاكتشافات الحديثة في الفيزياء الكونية لا تسمح بالقول بوجود إله بل إنها تشير إلى وجوده. يوضح المؤلفان أن غايتهما من هذا الكتاب هي فحص البيانات العلمية بصدق دون الالتفات إلى ما يمكن ان تقود إليه، فالغاية هي عدم تسير العلم في اتجاه ما دون غيره. ولا نستطيع القول بأن ما قدماه جاء مقبولًا في المجتمع العلمي وعند الشكاك حول العالم، بل أثار نقاشات واسعة فرضت نفسها على الدوائر الأكاديمية انطلاقا من نقطة مركزية كشفت عنها الدراسات الكوسمولوجية، وهي ان الكون له بداية، وبهذا فإن المسبب يجب أن يكون موجودًا خارج نطاق الكون والزمان الذي وجود فيه، وأن الانفجار العظيم لا يمكن أن يقدم تفسيرًا للقوانين والطاقة التي تحكم الكون، إذ لا يمكن للقانون

ان يسبق السياق الذي يحكمه أو يفسره، ولهذا فإن الكتاب يناقش الانفجار العظيم باعتباره نقطة تحول فلسفي. كما يعالج قضايا مثل الطاقة الحرارية والضبط الدقيق. لهذا فإن الباحث يرى بأن هذا الكتاب يُعد أيضا من أقرب الدراسات لموضوع البحث.

أما الدراسات العربية ذات الصلة بموضوع دراستنا، نجد أنه من المناسب التنويه أنها تدور في ذات الفلك منذ عهد قديم وبرغم العقود الطويلة التي تفصل بين الدراسات إلا انها تقارب الأمر وتخوض فيه من ذات المنطلقات، وهي النص الديني والأدلة الكلاسيكية، حتى عندما يتضمن عنوان الدراسة مصطلح "حديث أو معاصر أو فيزياء"، تجد المضمون قائمًا على النص المقدس، ونؤكد هنا أن هذه الدراسات لها أهميتها في سياقها، لكن موضوع دراستنا يجانب هذا السياق. ونورد فيما يلي بعض هذه الدراسات.

- **القرضاوي (1990) "وجود الله".**

عرض القرضاوي عدد من الأدلة لإثبات وجود الله في كتابه، مع الإشارة إلى أنه يرى أن هذه القضية (وجود الله)، تُعد قضية بينة لا تحتاج لإثبات وإن الغاية من هذا الكتاب بسبب المرتابين والمجادلين. قدم القرضاوي أدلة ترتبط بالفطرة الإنسانية، منطلقا من أن وجود الله مفطورًا في النفس الإنسانية باعتباره شعورًا يغمر الإنسان لا يحتاج فيه تعليما ولا تلقين. وقد أفرز عنوانًا فرعيًا (دلالة الكون) استرعى اهتمام الباحث، كونه يقارب مضمون هذه الدراسة، إلا أنه وبعد الاطلاع عليه تبين أن القرضاوي ذهب فيه إلى أن تأمل العقل للكون يقود للقول بوجود خالق مستندًا على ذلك بآيات من القرآن الكريم، ملخصًا الأدلة الكونية بأربعة مفاهيم هي "الخلق، والنسبوية، والتقدير، والهداية"، وبالتأكيد، فإن هذه المقاربة بعيدة كل البعد ومختلفة تمامًا عن موضوع دراستنا هذه، إذ ان القرضاوي يناقش الأدلة الكونية انطلاقًا من فهم ديني قرآني، ويناقشه نظريًا منطلقًا من التسليم المسبق فيه، في حين أن هذه الدراسة التي نحن بصددها تقوم على العلوم الكوسمولوجية (الكونية) في سياقها العلمي التطبيقي.

- **شيخاني (2001) "أدلة علمية معاصرة لإثبات وجود الله".**

قدم الشيخاني كتابه "الله يتحدى الملحدين" بعنوان فرعي "أدلة معاصرة لإثبات وجود الله"، الأمر الذي استدعى الوقوف عنده لبيان إن كان لهذه الدراسة أي فائدة مرجوة، أو إضافة يمكن الالتفات إليها. لكن هذا الكتاب جاء يقدم الأدلة الكلاسيكية ذاتها، المرتبطة بالفطرة والتأمل والاتكاء على النص القرآني، الأمر الذي هو في أساسه وعمقه مرتبط بالإيمان وليس العقل أو الأدلة

العلمية المعاصرة، كما أن فيه مصادرة على المطلوب إذ أن الغاية إثبات وجود الله، في حين أن الكاتب ابتدأ بالتأكيد على وجوده، ثم أورد بعض المسائل الكلاسيكية المعروفة في الفلسفة الإسلامية مثل الترجيح والابداع والعلية. كما أفرز جزءًا للاعجاز اللغوي والعلمي في القرآن الكريم. وهكذا فإن الكتاب في نهاية المطاف لا يقدم أدلة علمية معاصرة بالمعنى العلمي الدقيق، إنما هو تأويل للنص الديني على يد غير العلماء، الأمر الذي لا يقارب موضوع هذه الدراسة.

- **المنوفي (دون تاريخ نشر)، "كتاب الوجود"**.

خاض المنوفي في كتابه نقاشًا مطولًا وتفصيلًا كبيرًا يسعى من خلاله إلى توضيح أصل الوجود واختلاف مراتب الوجود وما فيه من علاقات علية، الأمر الذي عبر عنه بمصطلح "استقراء علائق الوجود". ناقش المنوفي عالم الوجوب وعالم الإمكان، وقارب الأمر بالطريقة التقليدية المعروفة في الفلسفة الإسلامية. وعند حديثه عن العالم وحقائق الوجود، فإنه يخلص إلى القول بعجز العلم عن الوصول إلى حقائق الوجود، ويسترسل في حديثه عن القوة والقانون والمادة، وصولًا للعقل مرة أخرى؛ ليؤكد قصوره وعدم صلاحيته لا بل وفساد النظريات التي سعت للقيام بذلك، قديمًا وحديثًا ابتداءً من تصور أفلاطون المثالي وأرسطو الميكانيكي. ثم ينظر في الفلسفة الحديثة وعرضها للوجود والعدم، ليعود لنقاش الصفات وعلاقتها بالذات وبالطبيعة (الوجود)، ليصل إلى التأكيد مرة تلوى مرة بأن الكون ما هو إلا مجالًا لفاعلية صفات الله. وهكذا دون سرد تفصيلي لكل مباحث الكتاب هنا، فإن كافة العناوين في المحصلة هي من مواضيع الفلسفة الدينية الكلاسيكية، الأمر الذي يبرز ويعزز أهمية الدراسة التي نحن بصدد تقديمها باعتبارها تقارب الموضوع "سؤال المصدر" من موقف علمي تطبيقي معاصر.

مدخل

الناظر للحياة اليومية المعاشة، والراصد للتغيرات الاجتماعية والسياسية وحتى الثقافية وغيرها، سيلحظ حضور الدين باعتباره مفهومًا محوريًا في الحياة العامة على الصعيد الفردي والجمعي، وما يرتبط بذلك من أثر على حياة الأفراد وسلوكهم، ويمثل "الله" –تعالي– المفهوم المركزي في الدين، وكل ما سواه مرتبط به. _يقتصر الحديث هنا على الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي _. لهذا كان البحث في إثبات وجوده هو القضية الأهم، باعتبارها نقطة ارتكاز كل ما سواها، إذ إن كل ما يرتبط بالدين يستمد قيمته من وجود الله ابتداء. الحديث هنا عن كل تمثلات

وتجليات الدين. ومن المهم أن نميز في هذا المقام أن الحديث عن الله لا يوازي الحديث عن الدين، فالرسالات السماوية الثلاث يمثل الله فيها المفهوم المركزي كما ذكرنا، لكن الحال ليس كذلك في كافة الأديان حول العالم، ويقصد بالدين هنا، منظومة إيمانية وطقسية (شعائرية) يمارسها جماعة من الأشخاص، وتنعكس على نمط تفكيرهم وسلوكهم.

لماذا علينا أن نثبت وجود الله؟ أو بصيغة أخرى، هل علينا أن نثبت وجود الله؟ طالما أن الدين قائم على الإيمان ومرتبط به، وكافة الرسالات السماوية تقول باحترام الحرية والكرامة الإنسانية اللتان هما من الله تعالى للإنسان، إذن لا داعي لإثبات وجوده، هي قضية إيمانية شخصية (ذاتية)، يذهب فيها الإنسان الفرد المذهب الذي يريده. لكن يحضرني هنا ما ذهب إليه الفيلسوف الأمريكي ريكي جيرفيس (Ricky Gernais)، من أن "الاعتقاد في شيء لا يجعله حقيقيًا"، (Gervais, Why I'm an Atheist, wall Street Journal, December 19, 2010). إن الرغبة او الرجاء في أن يكون شيء ما حقيقيا، لا يجعله كذلك، أي أن وجود الله ليس أمرًا شخصيًا وإن كان الإيمان به أمر شخصي إلا أن وجوده ليس كذلك، فإما أنه يوجد أو أنه لا يوجد. إذ كيف لكل ما هو حقيقي في سياق ما يستمد حقيقته وأصالته مما هو ليس حقيقي؟.

ذهب ديكارت في الكوجيتو إلى اعتبار الله هو الضامن للحقيقة، فهو يرى أن وجود الله ليس يقينا فحسب، بل "إن كل يقين إنما يعتمد عليه". (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 207) بعد أن شك في كل شيء وبدأ في سعيه للوصول إلى اليقين، استطاع أن يثبت وجوده الشخصي انطلاقا من الشك والتفكير، فكان الكوجيتو الديكارتي خطوة نحو الله حين انتقل من اثبات وجوده لإثبات وجود الله، ذلك أن معياري الوضوح والتمايز (أي أن يكون الشيء واضحًا بذاته متمايزًا عن غيره)، اللذان وضعهما باعتبارهما معياري الحقيقة، لا يمكن الاعتداد بهما دون وجود ضامن للحقيقة وهذا الضامن هو مصدر لها أيضًا. لأن ديكارت يدرك تماما بأنه لا يستطيع غير الموجود أن يضمن ما هو موجود، لذا كان لزامًا عليه أن يثبت وجود الله، في الحقيقة أستطيع أن أصدر حكمًا هنا أن منهج ديكارت لا يكتمل دون إثبات وجود الله. ويقصد ديكارت بلفظ الله "جوهرًا، لا متناهيًا، أزليًا، منزهًا عن التغير، قائمًا بذاته، محيطا بكل شيء، قادرا على كل شيء، وقد خلقني أنا وجميع الأشياء الموجودة" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الآولى، 154).

إن السعي أو محاولة إثبات وجود الله، ليس سعيًا جديدا أو حادثًا، إذ يسهل على المهتم أن يقف على ما قدمته الفلسفة المسيحية والفلسفة الإسلامية تباعًا في هذا الصدد تحديدًا، لا بل إن

أدلة وجود الله الأشهر والمعروفة بالأدلة الخمسة بلغت من الانتشار ما يجعلنا نفترض معرفة أي باحث فلسفي مهتم أقل اهتمام في هذا الشأن بها. ومع أن هذا البحث لا يروم تقديم السياق التاريخي للأدلة الخمسة، والأدبيات المرتبطة بها، إلا أنه يجب التذكير بأن ما ذهب إليه أرسطو من تصوره الميكانيكي للكون المتضمن لمحرك أول غير متحرك (مطر، الفلسفة اليونانية، ص311)، شكل جزءًا من بناء المناهج اللاحقة التي وظِفت لإثبات وجود الله.

كذلك فإن الغاية من التذكير بموقف أرسطو هنا مردها التذكير بموقفه الذي يبين فيه استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية، الأمر الذي سيكون لنا وقفة لبيانه في ضوء العقل المعاصر والتجريبية. لقد عبر أرسطو صراحة عن استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية، وعليه فلا بد من محرك أول هو بذاته غير متحرك، وعبر أيضا عن أن الحركة لا تتم دون محرك (فاعل)، يخرج ما هو موجود بالقوة إلى ما هو موجود بالفعل، فالمقصود بالحركة هنا ليس الانتقال من مكان إلى آخر فقط، فالحركة هنا تتضمن الانتقال من حيز القوة إلى حيز الفعل، إنها صيرورة أو تحقق للموجود، إنها كمالًا له بحسب تعبير الفلسفة الإسلامية، إنها فعل في الزمن فما الزمن عند أرسطو إلا عدّ الحركة. "الزمن هو مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر" (ارسطو، السماع الطبيعي، ص138).

نجد في الرسالات السماوية، تقاربًا في صفات الله، وذات الأمر نجده في الفلسفات المنبثقة أو المنتسبة لهذه الرسالات السماوية، فكان الله إله محبًا، رحيمًا وعادلًا، وغيرها من الصفات التي يمكن القول أنها شكلت باعثا للشك لدى العديد من الناس، خاصة في عصرنا الحالي، حيث كثرة الظلم وانعدام العدل والقسوة، والفساد. فمع إنتشار الحروب وما نتج عنها من قتل للأطفال وتشريد وتجويع وآلم، أصبح الحديث عن إله محب وعادل ورحيم، أمرًا يزداد صعوبة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه المفاهيم (الصفات)، شكلت جزءًا رئيسًا في منهج إثبات وجود الله، خاصة في الفلسفة المسيحية والإسلامية. ويذهب كل من شين ماكداول (Sean MacDowell)، وجون ماريوت (John Marriot)، في كتابهما (Set Adrift) إلى أنه "يجد شباب الجامعات ومن بلغوا سن الرشد المبكر صعوبة متزايدة في الاحتفاظ بإيمانهم. ونتيجة لذلك فإنهم يهجرونه". (McDowell, Marriot, Set Adrift, 2023, xiv)

مع الالتفات إلى أثر التفكيكية في فكر ما بعد الحداثة وازدهارها باعتبارها تيار فلسفي قائم على التشريح الممنهج والمنظم للأفكار والآراء والقضايا، فإنها ألقت بضلالها على المؤمنين وبشكل خاص في الغرب، إذ مارس المؤمن في الغرب التفكيك على المفاهيم الدينية، وعلى المعتقد الديني

والإيماني، الأمر الذي دعى للتخوف من إيجاد مفارقة بين صفات الله كما ذكرنا، والواقع الذي نعيشه، إذ كيف يقبل إله محب رحيم عادل بما نمر به؟ وهذه المفارقة هي معضلة قديمة في الفلسفة الوسيطة، تعرف بمشكلة أو معضلة الشر، وقد أفرز الفلاسفة المسيحيون حججا خاصة بالرد والبيان على هذه المعضلة، ونستذكر منهم جون سكوت أريجنا (815–877) على سبيل المثال. (Johannes Scotus Eriugena). (انظر كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ، ص70–ص72) إلا أن النتائج مع التفكيكية كانت مختلفة ذلك أن بحسب بعض الدراسات لم تقد التفكيكية إلى هجر الإيمان، إنما أفضت إلى إيمان أقوى مع بقاء التخوف من أن تقود إلى الإلحاد لدي البعض، فالأمر إذا لا يُنظر إليه باعتباره طريقًا يقود كل السالكين فيه إلى ذات نقطة الوصول.

نلحظ أن المؤمن وبشكل خاص المؤمن الغربي، حيث ظهر تيار ما بعد الحداثة ونما بشكل أساسي، قد نظر نظرة تفكيكية إلى أدلة وجود الله برغم ما لها من امتداد تاريخي وقبول لدى طيف واسع من البشر. إلا أن هذا الامتداد التاريخي لم يشفع لها أمام مطرقة التفكيك، الأمر الذي لربما هدد في إفقادها مكانتها، خاصة أن هذه الأدلة جميعها في نهاية المطاف تتضمن نقلة غير مبررة مما هو مادي إلى ما هو غير مادي، وهذه النقلة تحمل معها ثغرة منهجية لا يقبلها العقل العلمي التجريبي المعاصر، أو على الأقل هذا ما نفترضه.

هل يعني هذا أن وجود الله يتعارض مع العقل المعاصر، أو أنه على أقل تقدير لا يستقيم؟ لربما ستكون الإجابة هينة على صاحب الموقف الدوغمائي، سواء بالإثبات أو النفي، لكن الباحث الذي يبغي الحياد قدر المستطاع، ويسعى للتقرب من الحقيقة ما أمكن، سيجد عدد من الأمثلة البارزة لعلماء قبلوا وجود الله وآخرون رفضوها، وذات الأمر على المفكرين والفلاسفة وغيرهم. إن الأمر لا يرتبط بتخصص أو حقل معرفي ما، يقود العامل أو المختص فيه إلى قبول أو رفض وجود الله، وهنا علينا أن ننتبه إلى ضبابية استخدام مفهوم العقل، أو على أقل تقدير سعة وتنوع معاني استخدامه وتباينها، فالعقل في محصلة الأمر ليس حكرًا على جماعة محددة أو على نمط بعينه دون غيره، فالعلوم الطبيعية تستخدم العقل، والعلوم الإنسانية تستخدم العقل إلا أن هذا لا يعني أنهما يستخدمانه بذات المعنى وذات الطريقة. وما يُقال على العقل يُقال على العديد من المفاهيم الأخرى، مثل مفهوم المنهج وطبيعته ومفهوم التجربة وطبيعتها ، إن هذه المفاهيم لها دلالات ومعاني مختلفة تبعاً للسياق والمضمون المعرفي أو العلمي الذي توظف فيه. وهنا نُشير

إلى أن مفهوم العلم ذاته يُعد مفهوما متعدد الدلالات، وما هذا إلا إشارة للتدليل والتأكيد على المعنى المراد هنا من أن استخدام المصطلحات يُعد قضية مربكة إلى حد ما على غير المختص، إذ قد يُهيئ له أن المفهوم أو الكلمة بشكل عام يقتصر استخدامها على معنى واحد فقط.

نقطة تحول

شكل السؤال عن بدء الوجود معضلة رئيسة في تاريخ الفكر والوجود البشري الواعي، حيث سعى الموجود العاقل بما يملك من أدوات معرفية على اختلاف وتباين مستوياتها وتدرجه في تطويرها إلى الإجابة عن هذا السؤال، وقد شكل تصور أرسطو المتمثل في المحرك الذي لا يتحرك، والذي يعد سببًا لحركة كل ما سواه (انظر مطر، الفلسفة اليونانية،ص10-14) تصورًا ألقى بضلاله على عدد من الإجابات اللاحقة لذات السؤال في بيئات وثقافات متعددة، وقد تم تطويره بما يتناسب مع السياق الديني في مرحلة ما، بحيث نجد هذا التصور دارجًا عند فلاسفة المسيحية والإسلام بعد أن قاموا بتطويعه بما يتناسب مع جوهر الإيمان. كذلك شكل تصور ارسطو بحسب الباحثين أول تصور لنظام ميكانيكي للكون، قائم على سلسلة من العلل والمعلولات التي من خلالها يمكن رد أي موجود إلى علة أدت إلى وجوده. مستذكرين أن جزءًا من تصور أرسطو للمعرفة قائم على معرفة العلل الأربعة للشيء موضوع المعرفة، والمتمثلة في العلة الصورية، العلة المادية، العلة الفاعلة، العلة الغائية.

أُعيد تشكيل تصور ارسطو هذا من بعده، وتم توظيفه كما أشرنا بطرق وأشكال مختلفة، وبشكل خاص في الفلسفة المسيحية والإسلامية، بحيث تحول من كونه تصور ميكانيكي للنظام، ليصبح حجة ودليل على وجود الله باعتباره واجد وخالق وعلة هذا الكون. وبرغم ما يمكن ملاحظته بسهولة من الاستمرار (الامتداد) التاريخي لهذا الدليل (الرأي، الموقف) وانتشاره الكبير في الفكر الفلسفي المسيحي والإسلامي على التوالي، ضمن باب أدلة وجود الله، ويذهب بعض المعترضين أو المشككين إلى أننا نستطيع أن نلحظ جانبًا من القصور في هذا القول باعتبار أنه لا يقدم تصورًا حول كيف صدر هذا الوجود "الكون" المادي المتناهي عن الله غير المادي وغير المتناهي؟ ناهيك عن القول بأن الذي يصدر عن شيء يفترض أن يشبهه في جنسه ونوعه وصفاته، الأمر الذي لا يتحقق في هذا الدليل (الرأي، الموقف).

نود هنا إن نضيء على فكرة لها أهمية في توسيع أفق النظر إلى هذا التساؤل، أي السؤال

الذي يفترض الشبه في الجنس والنوع بين العلة والمعلول، بحيث نذكر مثالا للتفكر والتأمل ولتقريب الفكرة أيضًا بما يسمح بتكوين تصور عن طبيعة الإجابة (الرد) على هذا التساؤل. ونقول هنا، ألا يُعد النجار الذي صنع كرسيا خشبي علة وجود هذا الكرسي؟ فهو الذي صنعه وأخرجه من حال القوة (خشب صرف) إلى حال الفعل (كرسي)، وهو الذي اعطاه صورته، من صورة ذهنية في عقل النجار إلى تحقق مادي في الواقع، ووضع غايته (الغاية من صنعه وتصميمه بهذا لشكل)، ومع هذا فالكرسي ليس نجارًا، ويختلف عنه اختلافًا كليًا وجذريًا. كما أنه ليس من نوعه ولا من جنسه. ويمكن أن نذكر بهذا الصدد عشرات الأمثلة المشابهة، لكن الغاية إيصال المعنى والتدليل عليه وهو أن العلاقة بين العلة والمعلول لا تعني بالضرورة أن يصدر عن العلة ما هو مشابهة لها.

لا زلنا اليوم نطرح ذات السؤال، من أين أتى هذا كله؟ وبالمناسبة، لقد تصدر هذا السؤال عناوين الكثير من المجلات العلمية العريقة وأكثرها رصانة وشهرة على مدار عقود من الزمان، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الانتشار الكبير لنظرية الانفجار العظيم (Big Bang) وسطوة حضورها في العقل العلمي وحتى الشعبي أحيانًا، فالإسم معروف لدي طيف واسع من الأشخاص خارج نطاق العلم وإن كانوا لا يدركون حيثياته أو أبعاده بالتفصيل أو بشيء من الدقة على أقل تقدير. ولربما يتبادر سؤال للذهن مفاده، لماذا هذا السؤال لا يزال مطروحًا؟ إلا إذا كانت هذه الإجابة لا تعد إجابة نهائية وحاسمة للأمر. لا بل إن عالم فيزياء الفلك سي. جاي. إشام (C. J. Isham) في كتابه "خلق الكون بصفة عملية فيزياء كمية" (Creation of the Universe as Quantum Process) يذهب للقول: "ربما تكون الحجة الأقوى –أن الانفجار العظيم يؤيد فكرة وجود إله خالق– هي سبب عدم الراحة الواضحة التي تلقى بها علماء الفيزياء الملحدين هذه النظرية. (Strobel, Is God Real?, p:17).

ذهب الفيلسوف ستوارت سي. هاكيت (Stuart C. Hackett) في كتابه (The Resurrection of Theism) إلى أن الكون إذا كانت له بداية فهذا يعني أن له خالقًا. (Hackett, The Resurrection of Theism, 2nd) وفي هذا القول نحن لسنا بصدد التحقق من سلامة استخدام المنطق من حيث صحة المقدمات وما يتبعها من صحة النتيجة أو النتائج، الأمر الذي كان الأجدر الآخذ به في مجموعة الأدلة المعروفة والمتواترة كما ذكرنا لإثبات وجود الله، بل نحن هنا بصدد التعامل مع الأمر في ضوء علم الكونيات (Cosmology).

تبدو الحجة للوهلة الأولى بسيطة ومباشرة "كل ما له بداية له سبب– الكون له بداية إذن

الكون له سبب". ذلك أن الأشياء ببساطة لا تقفز من العدم إلى الوجود بلا سبب، ومع هذا برزت أراء مغايرة كالتي ذهب إليه كوينتين سميث (Quintin Smith) (Craig, Cosmological Argument,36) إذ يقول: "الاعتقاد الأكثر منطقية هو أننا أتينا من العدم بواسطة العدم، ولا لأي سبب". وبالتأكيد فإن القائلين بهذا الرأي عاجزون عن إقامة الدليل عليه، ونحن هنا نطرح سؤالًا برسم الإجابة، هل يعقل أن تكون فكرة حدوث الأشياء من العدم وبسبب العدم، أكثر منطقية أو قبولًا من القول بوجود سبب؟!

برغم هذا الحس المنطقي المقبول بترجيح وجود سببٍ من عدم وجوده، إلا أن الحاجة تتطلب ما هو أكثر من مجرد هذا الحس. ولربما من المفيد في هذا المقام أن نستعين بالتجربة الحياتية المعاشة للإنسان العادي في حياته اليومية، إذ نلحظ على سبيل المثال أن الطالب الجامعي الذي يدرس في مكتبة الجامعة لا يخشى أن يظهر له أسد يهاجمه من العدم، أو يخشى سائق الحافلة في وسط عمان من أن يفاجئه دباً في الطريق. هل تبدو هذه الفرضيات غريبة أو غير مقبولة؟ أو تبدو غير منطقية ومستبعدة؟ حسنا، وأنا مثلك أراها كذلك، لا بل أراها تثير السخرية وتصلح للتندر، ولا تقل عن سذاجة الرأي القائل بحدوث الأشياء عن العدم يعد أكثر منطقية من وجود سبب.

نستحضر هنا ما تقر به الفيزياء على مستوى دون ذري (Subatomic Level) وهو المستوى الذي كان عليه الكون في مرحلة مبكرة، ونستحضر أيضا ما تقر به فيزياء الكوانتم، حسب تعبير الكاتب العلمي (Timothy Ferris) (Ferris, The Whole Shebang: A State of the Universe, 265) بأنه "يجري فيها انتهاك الأسس المنطقية للعلم". فبحسب نظرية الكم (الكوانتم)، يمكن أن توجد الأشياء ماديا من الفراغ، وهنا يجب الإلتفات إلى أنه ليس واضحًا أو مؤكدًا إن كانت توجد حقا أم أنها تركيبات نظرية فقط، مع التركيز والتنبيه بأنها لا تأتي من العدم كما يتهيء لأغلب الناس (الباحثين)، فالفراغ هنا ليس عدمًا بل هو طاقة لها تركيب فيزيائي يمكن وصفه باستخدام قوانين، وهذه الجزئيات التي يُفهم خطأ أنها تأتي من الفراغ إنما تصدر عن تقلبات الطاقة في هذا "الفراغ". يصبح السؤال حينها، من أين أتى هذا الفراغ "المليء بالطاقة"؟ أو ما يُعرف بالفراغ الكمومي (Quantum Vacuum).

نجد أنفسنا مرارًا وتكرارًا أمام سؤال المصدر في هذا المحيط (الكون)، الذي بفضل العلم بتنا نعلم أنه محيط نشط مليء بالطاقة. وقد افترض العلم أزلية الكون لفترة طويلة من الزمن، ثم تجاوز العلم نفسه في القرن العشرين، وطرح مقولته بعدم أزلية الكون، وبأن له نقطة بداية. من

الجدير بالذكر هنا، أن ما قال به العلم مع مطلع القرن العشرين كان قد ذهب إليه الفلاسفة المسلمون من قبل، انطلاقا من منطق حسابي بسيط يوضح استحالة أزلية الكون أو لا نهائيته. وقد عبروا عن هذا بواسطة المثال التالي: إذ افترضنا أن هذا الكون "لامتناهي" أي ليس له بداية ولا نهائية يمثل خطًا مستقيمًا لا متناهي من طرفيه،

∞_____∞

ثم قمنا بتحديد جزأ متناهي ومحدد من هذا الخط اللامتناهي، نفترضه يمثل المقطع (أ_ب)،

∞_____أ_____ب_____∞

السؤال هنا، هل يبقى الخط اللامتناهي لامتناهيا؟ إذا كانت الإجابة نعم، فهل هو متناهي بنفس القدر الذي كان عليه قبل إزالة المقطع (أ،ب)؟ أم أنه لامتناهي أصغر؟ ثم إذا ما قمنا بإعادة المقطع (أ،ب) هل يبقى اللامتناهي كما هو؟ أم يصبح لامتناهي أكبر؟ وكأن السؤال هنا، هل يوجد لامتناهي أكبر من لامتناهي؟ أو لامتناهي أصغر من لامتناهي؟ ومن الجلي أننا لا يمكن أن نفترض أن اللا متناهي هو ذاته لا يزد ولا ينقص مهما أخذنا منه او أضفنا عليه، لأن هذا بالتأكيد لا يمكن.

بالعودة لعلم الرياضيات، مستحضرين الإشكالية التي ذكرناها الان المرتبطة باللانهائي، نجد أن الرياضيات تقول بأننا لا نستطيع أن نقوم بالجمع والطرح اللانهائيين، لأنه سيقود إلى نتائج خاطئة، فعلى سبيل المثال، إذا كان لدي عدد لا نهائي من الأقلام، وأعطيتك كل العدد الذي فوق (بعد) الرقم 8، فهل هذا يعني أن لديك عدد لا نهائي من الأقلام إلا 8؟ أي التي بقيت معي، إذن ما لديك ليس لا نهائي بل متناهي، لهذا نقول انه لا يوجد جمع وطرح في اللانهائي، فالانهائي هو تصور عقلي وليس وجودًا حقيقي، إنه يوجد على المستوى المفاهيمي.

ربما تستحضر في ذهنك الأن فكرة الله باعتباره أزلي، فهل ينطبق عليه ذات القاعدة أو ذات القول بأن له وجودًا مفاهيمي فقط، أو تصور عقلي؟ وهنا نقول بأن الله خارج حدي الزمان والمكان، فهو تعالى خالقهما وخارجهما.

منظورٌ أخر

نعرض هنا إجابة أخرى لذات السؤال، أي سؤال المصدر دون توسط الفلسفة المسيحية والإسلامية تباعًا. إجابة مستمدة من النظرية العلمية السائدة، لا بل النظرية التي تلقى أعلى نسبة قبول في الأوساط العلمية، والإشارة هنا إلى نظرية "الانفجار العظيم" (The Big Bang Theory)،

والتي جاءت حصيلة مقدمات فيزيائية بدأت مع أينشتاين (Albert Einstein)، ونظريته النسبية العامة التي ظهرت للنور عام 1915 حيث أفضت إلى عدم إمكانية القول بكون ثابت إذ أنه يتمدد وينكمش، ويتفجر للخارج أو الداخل، ولهذا وجب عليه وضع معادلة يجعل من خلالها الثبات ممكنا "نظريًا".

طور عدد من علماء وبشكل خاص علماء الرياضيات في عشرينيات القرن المنصرم نماذج اعتمادا على مبادئ اينشتاين توضح تمدد الكون، نذكر منهم عالم الرياضيات الروسي فريدمان (Alexander Friedman)، وعالم الفضاء البلجيكي جورج لوميتر (George Lemaitre)، إذ ذهبا في نماذجهما إلى أن الكون يتمددن وبهذا فإننا إن عدنا إلى الوراء سنصل عند النقطة التي بدأ يتمدد منها، ومعنى هذا أن الكون لم يكن موجودا عندها، وهذه النقطة هي ما اسماه عالم الفضاء فرد هويل (Fred Hoyle) الانفجار العظيم.

تبع هذا سلسلة من الاكتشافات العلمية على يد علماء فضاء مثل الأمريكي إدوين هابل (Edwin Hubble) ارتبطت هذه الاكتشافات بشكل أساسي بالضوء وألوان الضوء التي تصل إلينا، وعلاقة لون الضوء بعمره، آخذين بعين الاعتبار المسافة التي قطعها الضوء والزمن الذي استغرقه ليصل إلينا في هذا الوقت وبهذا اللون، وعلاقة هذا بالمجرات الكونية المعروفة لدينا حتى ذلك الوقت. ثم ظهر ما توصل إليه جورج غامو (George Gamow) في دراسته المرتبطة بدرجة حرارة الكون، وبيان ما يجب أن تكون عليه الحرارة في مرحلة ما كي تنسجم مع القول بصدق نظرية الانفجار العظيم، وما تلى ذلك من اكتشاف لشعاع يوافق في درجة حرارته ما كان يفترضه غامو وإذ به دليلا على صدق النظرية، وهو ما بات يعرف بإشعاع خلفية الكون (Cosmic Background Radiation). ثم تلك الدراسات التي ارتبطت بمصدر العناصر المكونة للضوء، وهكذا فإن الاستمرار في تتبع هذه الفرضيات (الاسئلة)، يقود إلى كبير من الدراسات العلمية ذات الصلة بالبحث المستمر والسعي الدائم لتقديم إجابة مرضية على السؤال القديم ذاته، من أين أتى هذا كله؟ سؤال البدايات، سؤال المصدر عن أصل الكون، وفقا للمعرفة والعلوم المعاصرة.

شكلت هذه الاكتشافات العلمية الجديدة نسبيا والمتنوعة ذات الصلة بدراسة الكون (الفضاء)، روافد جديدة تصب في صالح دعم وتأكيد نظرية الانفجار العظيم، حيث إنها جاءت مؤكدة لنتائج كانت النظرية تفترض وجوبها ضمن سياقها التفسيري لنشأة الكون. وإذا استعرنا من

كارل بوبر (Karl Popper)، مبدئه "قابلية التكذيب" الرامي إلى افتراض أن ما لا نستطيع تكذيبه من خلال موقف مغاير عنه، علينا أن نقر بصوابه (انظر بوبر، منطق الكشف العلمي،ص115). وفي ضوء فشل محاولات التكذيب لنظرية الانفجار العظيم، بمعنى عدم تقديم نظريات أخرى مغايرة لها، نستطيع من خلالها بيان خطئها وتكذيبها، فإننا بذلك نجد لزامًا علينا وأمام تأييد البيانات التي تزيد من صلابة هذه النظرية وتؤيدها أن نقبل بها، لا بل يمكن الذهاب إلى القول بأنها النموذج القياسي (الإفتراضي) الأكثر قبولا في علم دراسة الكون، الأمر الذي أكد عليه الفيزيائي ستيفن هوكنج (Stephen Hawking)، حين قال بأن الاعتقاد السائد الأن هو أن للكون والزمن بداية هي عند الانفجار العظيم. (Hawking, The Nature off Space and Time, 20).

يعود هنا السؤال الأبرز ليمثل أمام الباحثين في صيغته المباشرة والأكثر بساطة، من أين أتى هذا كله؟ أي سؤال المصدر. فكل ما له بداية، له سبب. فإذا حدث إنفجار بسيط أو سُمع صوت مدوٍ في مكان ما، فهل سيقبل أحدًا تفسيرًا مفاده أنه لا يوجد سبب لهذا الصوت؟. إذن ما المطلوب الأن؟ هل هو القفز مباشرة إلى القول بوجود الله؟ سيكون هذا حلًا سهلًا ومقبولًا للمؤمن، أما عقل غير المؤمن والعقل العلمي المعاصر فبرغم رغبته في معرفة المصدر، إلا أنه سيذهب إلى طرح سؤال اضافي يرتبط بطبيعة هذا المصدر (المُسبب) لهذا البدء (بدء الكون). ونضيف إذا كان كل ما له بداية له سبب، فهل هذا يعني أن القول بوجود خالق هو سبب الكون، يُساق عليه ذات الحكم؟ أي أن له بداية وبالتالي له سبب؟

نعود هنا إلى تصور ارسطو الميكانيكي للكون، والذي بين فيه استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية وعليه لا بد من وجود محرك أول، هو بذاته ليس متحركًا، لكنه سببًا في حركة ما دونه. وهو التصور الأكثر بساطة للإجابة على السؤال، أما الإجابة الأكثر قربًا للمفاهيم العقلية المعاصرة، والمرتبطة بالعلوم الحديثة فهي تنطلق مما ذهب إليه العلم من القول بأن الكون حدث في زمان محدد، الامر الذي توصل إليه علماء الفيزياء الكونية أنفسهم كما بيناه سابقا. وهذا يتركنا أمام القول بأن المسبب في خلق الزمان والمكان لا تنطبق عليه مقولتان الزمان والمكان، لأن المسبب خارجهما، وبأن له من السمات كالحرية والقوة ما يتيح له أن يقوم بما قام به، وإلا لوقعنا في الدور المنطقي ودخلنا في سلسلة لا متناهية من المسببات والأسباب، ووقعنا في التعارض أيضًا مع ما ذهب إليه العلماء بأنه لا يصح الجمع والطرح في اللامتناهي لأنه بالضرورة سيقود لنتائج متناقضة (متعارضة) وغير مقبولة.

نستذكر في هذا المقام، الموقف الإلحادي الذاهب إلى أن الكون أزلي، ولا حاجة لموجد (خالق)، لنجيب عليه إجابة علمية وليس إجابة إيمانية أو فلسفية مرتبطة بمذهب أو عقيدة ما، الأمر الذي كان يؤخذ سابقا على الأدلة المرتبطة بإثبات وجود الله، باعتبارها أدلة يعيبها خلل منهجي وفيها قفزة مما هو مادي إلى ما هو غير مادي دون مبرر. فالقول اليوم بأن الكون أزلي ولا يحتاج إلى موجد، يصطدم أول ما يصطدم بالعلم المعاصر. وهنا نطرح سؤالا بالمقابل، هل مشكلة العقل في مفهوم الأزلية؟ أم في مفهوم الله؟ إذ كيف يمكن أن يقبل العقل بأزلية الكون ويرفض القول بأزلية الله. فإن كان الوجود الأزلي للكون لا يحتاج لتبرير، فكيف كان من الصعب عليه أن يفهم أو يتقبل وجود الله الأزلي؟

إن ما ظهر من معطيات علمية جديدة اسقطت فرضية أزلية الكون، لكنها ضمنيًا أكدت ضرورة وجود مسبب لهذا الكون، مسببا خارج عن إطار الزمان لأن الزمان بدء مع الكون ولم يبدأ الكون في الزمان. وهذه القضية على درجة كبيرة من الأهمية.

طريقتان في التفسير

يأخذ السؤال في هذه المرحلة صياغة مختلفة، فبعد أن كان السؤال يبحث عن إمكانية وجود خالق، بات الان السؤال عن هل هو مجرد قوة ما، أم أنه وجود متسامي؟ ونوضح هنا، أن لتفسير قضية ما، يمكن لنا بحسب ستروبل (Strobel) أن نسلك طريقا من إثنين إما طريق التفسير العلمي، أو طريق التفسير الشخصي. المقصود بذلك أن التفسير العلمي يوضح الأسباب الطبيعية والقوانين المادية والميدانية التي تسبب حدوث أو تشكل الظاهرة موضوع الدراسة. أما التفسير الشخصي، فهو يوضح الأسباب من خلال ارتباطها بشخص (ذات)، يكون مُسببا للظاهرة من خلال إرادته وحريته. (Strobel, Is God Real, 40).

إذا شاهدت قطعة خشب تحترق في فناء منزلك أو في موقدك، التفسير العلمي لهذه الحادثة يوضح لنا ان الخشب مادة قابلة للاشتعال، وقد تعرض لمصدر حرارة (شعلة)، مع توفر الأكسجين، أي توفر ما يعرف بمثلث الاحتراق مما أدى إلى حدوث احتراق (اشتعال) الخشبة. وهذا تفسير يوضح آلية الاحتراق وشروط حدوثه. أما في التفسير الشخصي، فقد يخبرك أخاك أو ابنك بأنه أشعل الخشبة كي يتدفا أو يطهو عليها. إن كلا التفسيرين يوجدان معًا، أحدهما يقدم تفسيرًا للقوانين والأسباب الطبيعية، والأخر يقدم تفسيرًا شخصيًا يرتبط بذات حرة واعية سببت

حدوث أمر (ظاهرة) ما.

بالنظر إلى الحالة الآولي للكون، لا نستطيع تطبيق التفسير الطبيعي، كونه يفترض شروطا أو أسباب سابقة عن الظاهرة أدت إلى تشكلها وحدوثها، وكون الحديث عن الحالة الأولى إذا لا يوجد شروط مسبقة أو مبدئية أدت لها. وهذا يجعلنا أمام التفسير الشخصي باعتباره التفسير المقبول. وبالأخذ بعين الاعتبار ما مر بنا سابقا من كون المسبب خارج (فوق) الزمان والمكان، بالتالي لا يمكن أن يكون ماديًا، إذن فهو غير مادي. وما هو غير مادي لا يخرج عن كونه مفهومًا مجردًا أو عقل، أما المفهوم المجرد كالأرقام (العدد)، فهي لا يمكن أن تكون سببًا في حدوث شيء، إذ ليس لها وجودًا حقيقيًا، أو أقصى ما يمكن القول به أنها تصلح لتفسير حدوث شيء أو صياغة تفسره، وبهذا، فإننا نجد أنفسنا أمام عقل غير مادي، سابق عن الكون بالضرورة، لأن القول أنهما وجدا معًا يقود للقول بأزلية كل منهما، فيصبح السبب والمسبب أزليان، وهذا باطل.

خلاصة

بقي سؤال المصدر سؤالًا مفتوحًا للإجابات المتنوعة على مدار قرون من الزمان، في شتى الحضارات ومع شتى الأجناس وفي مختلف العلوم، ولربما سيكون ضربًا من السذاجة الاعتقاد بأننا سنصل إلى إجابة مقنعة لكل بني البشر، أو سنصل إلى إجابة نغلق باب البحث بعدها، وعليه فإن هذه الدراسة ما هي إلا مجهود في الفلسفة الدينية يرمي إلى تمثل نتائج العلم المعاصر في مقاربته لسؤال المصدر وما يقدمه من إجابة أو إجابات يمكن أن يبنى عليها طرحًا جديدًا في العقل الفلسفي المعاصر. ونأمل ان يكون باكورة لمجموعة من الأبحاث ان تتمثل النتاج العلمي مثل علم الأحياء، والجينات وغيرها من منظور الفلسفة الدينية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- إدريس، جعفر الشيخ (2001)، الفيزياء ووجود الله: مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين"، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- أرسطو، (1998)، الفيزياء السماع الطبيعي، ترجمة: عبد القادر فنيني، المغرب: إفريقيا الشرق.

- الأكويني، توما (1881)، الخلاصة اللاهوتية، خمس مجلدات، ترجمة: بولس عواد، بيروت: المطبعة الأدبية.
- بوبر، كارل (1986)، منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القادر، بيروت: دار النهضة العربية.
- ديكارت، رينيه (2014)، تأملات في الفلسفة الأولي، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- ستروبل، لي (2025)، "هل الله حقيقي"، ترجمة: أوسم وصفي، عمان: أوفير للطباعة والنشر.
- شيخاني، محمد (2001)، "أدلة علمية معاصرة لإثبات وجود الله"، الطبعة الأولي، دمشق: دار قتيبة.
- غرين، مايكل (1976)، "هل هذا معقول"، ترجمة: يوسف اسحق، دون دار نشر.
- القرضاوي، يوسف (1990)، "وجود الله"، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار قتيبة.
- كرم، يوسف (2016)، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، القاهرة: المؤسسة المصرية للطبع والنشر.
- مطر، أميرة (1998)، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، القاهرة: دار قباء.

قائمة المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية:

- Barr, Stephen (2003), "Modern Physics and Ancient Faith", University of Notre Dame Press.
- Sean McDowell and John Marriott, (2023), "Set Adrift: Deconstructing What You Believe without Sinking Your Faith", Zondervan.
- Green, Michael (1976), "You Must Be Joking", First Published, Hodder and Stoughton Ltd.
- Michel-Yves Bolloré and Olivier Bonnassies, (2025) "God, the Science, the Evidence", Palomar, Princeton University Press, 1996).
- Stephen Hawking and Roger Penrose, The Nature of Space and Time (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996)
- Strobel, Lee (2023), "Is God Real", New York: Zondervan Book.
- Timothy Ferris, The Whole Shebang: A State of the Universes Report, (New York: Touchstone, 1998).

- William Lane Craig, Howard, Jordan, Howard Sobel on the Kalam Cosmological Argument", Canadian Journal of philosophy 36 (2006): 565-84.

مراجع المقالات الإلكترونية:

- Grady, Monica, (2021), Can physics prove if God exists? https://www.bbc.com/future/article/20210301-how-physics-could-prove-god-exists
- Reese, Christopher (2024), What Scientific Proof Do We Have That There Is a God? https://www.cslewisinstitute.org/resources/what-scientific-proof-do-we-have-that-there-is-a-god/
- Soon, Willie, (2025), Does God exist? New mathematical formula suggests God is real? http://timesofindia.indiatimes.com/articleshow/118786372.cms?utm_source=contentofinterest&utm_medium=text&utm_campaign=cppst
- Horn, Trent, (2024), **T**he NEW Case for God's Existence**.** https://www.catholic.com/audio/cot/the-new-case-for-gods-existence
- Cited in Lydia and Zach Hrynowski, "How Many Americans Believe in God", Gallup, Jun24, 2022. https://news.gallup.com/poll/268205/americans-believe-god.aspx#:~:text=Other%20Gallup%20questions%20asked%20most,(wording%20A)%20was%20updated
- Cited in David Kinnaman, "Rising Spiritual Openness in America", Barna Research, January18, 2023. https://www.barna.com/research/rising-spiritual-openness/
- Ricky, Gervais "Why I'm an Atheist", Wall Street Journal, December19, 2010. https://www.wsj.com/articles/SB10001424052748703886904576031640102154156